(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).. طمأنينة الوحي ومسؤولية الأمة

أ.د. مشعل بن حميد اللهيبي

يبقى القرآن الكريم، على امتداد القرون وتعاقب الأزمان، كتابًا فريدًا في حضوره وأثره؛ ثابتًا في نصّه، حيًّا في معانيه، متجدّدًا في عطائه، لا تنقضي عجائبه ولا يبهت نوره. وقد تكفّل الله سبحانه بحفظه، فصار محفوظًا بحفظٍ إلهيٍّ لا تدركه أيدي التحريف، ولا تنال منه عوامل التبدّل، كما قال جلّ وعلا:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9].

هذه الآية ليست تقريرًا عقديًا فحسب، بل هي رسالة طمأنينة للأمة، وإعلان ربانيّ بأن هذا الكتاب سيظل هاديًا للقلوب، وقائدًا للإنسان، ومصدرًا للذكر والنور، مهما تغيّرت الأحوال وتبدّلت السياقات.

وهذه الآية تحمل رسائل إيمانية وتربوية عميقة، تمسّ القلب، وتوجّه السلوك، وتبني اليقين.

أولًا: الطمأنينة إلى وعد الله

تبعث هذه الآية في النفس سكينة لا تضطرب؛ إذ تؤكد أن حفظ القرآن تكفّل به الله جلّ وعلا، لا البشر، ولا المؤسسات. فهو محفوظ من التحريف والضياع، مصون بحفظ رباني لا يعتريه نقص ولا خلل. وهذه الحقيقة الإيمانية تزرع في القلب الثقة الكاملة بما بين أيدينا من كتاب الله، وتبدّد كل شبهة أو قلق.

ثانيًا: التمسك بالقرآن التزامًا ومنهجًا

إذا كان الله قد تكفّل بحفظ كتابه، فإن مسؤولية الأمة تتمثل في حفظ معانيه والعمل به. فالحفظ الحقيقي ليس حفظ الألفاظ فحسب، بل حفظ المنهج، والوقوف عند الأوامر والنواهي، وتحكيم القرآن في شؤون الحياة كلها. إن حفظ الله للقرآن يحمّل المؤمن مسؤولية التفاعل معه، لا الاكتفاء بتلاوته دون أثر.

ثالثًا: الاعتزاز بالقرآن وتعظيمه

تُشعرنا آية الحفظ بعظمة هذا الكتاب ومكانته، فهو ليس نصًا تاريخيًا، ولا كتابًا بشريًا، بل كلام الله الخالد. ومن هنا ينبع الاعتزاز بالقرآن، تعظيمًا له، وتقديمًا لأحكامه، واحترامًا لمكانته في النفوس والبيوت والمجتمعات. أمةٌ تعتز بقرآنها، أمةٌ تعرف طريقها ولا تضل.

رابعًا: القرآن ذكرٌ وهداية مستمرة

وصف الله القرآن بأنه "الذكر"، أي التذكير الدائم بالله، وبالحق، وبالمصير. فهو يوقظ القلوب الغافلة، ويقوّم النفوس المنحرفة، ويهدي الحائرين. ومن هنا تأتي أهمية المداومة على قراءته وتدبّره، ليبقى حاضرًا في الوعي، حيًّا في السلوك، مؤثرًا في القرار.

خامسًا: التعلم والتطبيق... ثمرة الحفظ الإلهي

ما دام القرآن محفوظًا، فإن تعلمه وفهمه والعمل به واجب لا يسقط. فالتلاوة وحدها لا تكفي، ما لم تصحبها معرفة بالمعاني، وتحوّل عملي في السلوك. إن القرآن إنما أُنزل ليُتّبع، لا ليُهجر، وليُحكّم، لا ليُزيَّن به الرفوف.

سادسًا: تعزيز الإيمان بقدرة الله وحكمته

تؤكد الآية قدرة الله المطلقة؛ إذ حفظ كتابه عبر القرون، رغم تعاقب الأمم، وتغيّر اللغات، واختلاف البيئات. وهذا يعمّق الإيمان بالله، ويغرس في النفس معنى التفويض والتوكل، واليقين بأن من حفظ كتابه، فهو على حفظ دينه وعباده أقدر.

سابعًا: التحفيز على الدعوة ونشر الخير

الإيمان بحفظ الله للقرآن يدفع المؤمن إلى تبليغه للناس بثقة ويقين. فالقرآن رسالة عالمية، محفوظة في نصّها، صالحة لكل زمان ومكان. ومن أعظم صور شكر نعمة الحفظ الإلهي أن نسعى لنشر هدايته، وتعليم معانيه، وربط الناس به قولًا وعملًا.

إن قوله تعالى: (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ليس مجرد خبر، بل هو وعد، وبشارة، وتكليف. وعدٌ بحفظ الكتاب، وبشارةٌ للأمة بالثبات، وتكليفٌ لكل مسلم أن يكون من حراس المعاني، وحملة الهداية، وشهود الحق في هذا العالم. فمن عاش مع القرآن حفظًا وتدبّرًا وعملًا، عاش مطمئن القلب، مستقيم الطريق، ثابت الرسالة.

أ.د. مشعل بن حميد اللهيبي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين- قسم الكتاب والسنة